﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: 4 - 5]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

تعظيمُ القرآن يقتضي تعظيمَ منزِّله

لَمَّا بيَّن الله تعالى السّببَ الذي لأجلِه أنزل القرآنَ أعقبه بالإشارة إلى تفخيم هذا المنزَّلِ لنسبتِه للمتفرِّد بصفاتِه وأفعالِه، فقال تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾، ولمَّا وصف ذاتَه سبحانه بالقدرةِ العظيمةِ؛ أعقبَه بذكرِ ما هو أعظمُ الخلقِ وأجلُّه، فأخبرَ عن عظمتِه وكبريائِه، المقتضي تعظيمَ القرآنِ المنزَّلِ ليكونَ على وجه التَّرقّي في بيانِ عظمتِه سبحانه، فقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْعُلَى﴾: يدورُ معنى الكلمة على السّموِّ والارتفاع بحيث يكونُ فوق شيءٍ هو تحته أو أدناه، والعلوُّ: ضدُّ السُّفْل، ومنه قولُهم: تَعالى النَّهارُ، أي: ارْتَفَعَ، وتَعالى الله سبحانه، بمعنى: تَرَفَّع، فتنزَّه في ألوهيَّتِه، ويُقالُ لِكُلِّ شَيْءٍ يَعْلو: عَلا يَعْلو، فإنْ كانَ في الرِّفْعَةِ والشَّرَفِ؛ قيلَ: عَلِيَ يَعْلَى، والعُلَى جمعٌ، مفردُه العُلْيا للمؤنَّث، ومذكَّره الأعلى، كالأكبر والكُبرى[1]، و﴿ٱلْعُلَى﴾ في الآية بمعنى الأشرفِ والأرفعِ والأفضل بالإضافة إلى هذا العالم[2].

2) ﴿ٱلْعَرْشِ﴾: يَدُلُّ العرشُ على ارْتِفاعٍ في شيء مسقَّفٍ، وجمعُه عُروشٌ، وسمّيَ مجلسُ السُّلطان أو الملك عَرْشًا اعتبارًا بعُلوِّه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: 100]، ثُمَّ يُسْتَعارُ العرشُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (علا).
(2) الراغب، المفردات: (علا)، وابن الهائم، التبيان، ص: 226.

في غَيْرِ ذَلِكَ، فكُنّي به عنِ العزِّ والسُّلطان والمملكةِ، قيل: فلان ثُلَّ عَرْشُهُ، وعَرْشُ اللّه: ما لا يعلمه البشرُ على الحقيقة إلَّا بالاسم، وليس كما تذهبُ إليه أوهامُ العامَّة، فإنَّه لو كان كذلك؛ لكان حاملًا له تعالى عن ذلك لا محمولًا[1].

3) ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾: يَدور معنى الكلمة على اسْتِقامَةٍ واعْتِدالٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، يُقالُ: هَذا لا يُساوي كَذا، أَيْ: لا يُعادِلُهُ، وفُلانٌ وفُلانٌ على سَوِيَّةٍ مِنْ هَذا الأَمرِ، أَيْ: سَواء، ومِنَ البابِ السَّواءُ: وسَطُ الدَّارِ وغَيْرِها، وسُمِّيَ بِذَلِكَ لِاسْتِوائِه، واسْتَوَى يقال على وجهين: **أحدُهما:** يُسنَدُ إليه فاعلان فصاعدًا، نحو: اسْتَوَى زيد وعمرو في كذا، أي: تَساوَيا، **والثَّاني:** أن يقال لاعتدال الشّيء في ذاته واستقامته، ويختلفُ معنَى (استوى) باختلاف حرف الجرِّ المتعلِّق به، فإذا قيل: (استوى إلى) كان بمعنى عمدَ وقصدَ، وإذا قيل: (استوى على)؛ كان بمعنى العلوِّ أوِ الاستيلاء والتَّمكُّن[2]، هذا من حيث اللّغة.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّنويهُ بالقرآنِ بِـذكـرِ عـظـيـمِ خلقِ الله وقُدرتِه العظيمةِ

يقولُ تعالى ذكرُه لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ: هذا القرآن نُزِّلَ عليك تنزيلًا من ربِّك الذي خلق الأرضَ، والسّماواتِ العُلا، والمرادُ بهما ما في جهة السُّفلِ والعلوِّ، ويستتبع ذلك كلُّ ما يتعلَّقُ بهما، وهو الرَّحمنُ على عرشه ارتفع وعلا على ما يليقُ بجلالِه وقدْرِه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في قوله: ﴿تَنزِيلًا﴾:

لَمَّا كان لفظُ ﴿تَنزِيلًا﴾ مصدرًا كان على معنى التّأكيد لفعلٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (عرش).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سوي).

محذوفٍ تقديرُه: (نُزِّلَ تنزيلًا)، لتكونَ الجملةُ تأكيدًا وتقريرًا لمضمون قولِه: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾، ويحتملُ أن يكون منصوبًا على الحالِ من ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾، فيكونَ حالًا ثانيةً للقرآن بعد الحال الأولى في قولِه: ﴿تَذۡكِرَةً﴾ على القولِ بأنَّه حالٌ - كما تقدَّم - كما يحتمل أن يكونَ منصوبًا على المدحِ، أي: مدحًا لتنزيلِ القرآن المتضمِّن مدحَ المنزَّل، وعلى الأوجه الثلاثة، فإنَّ تنكيرَ المصدر ﴿تَنزِيلًا﴾ فيه من الإيذانِ بفخامةِ التَّنزيل ما لا يخفى[1]، والمَقْصودُ التَّنْويهُ بِالقُرْآنِ والعِنايَةُ به.

تقريرُ التَّنويه بالقرآن للعنايةِ به

نُكتةُ العُدول في قولِه: ﴿تَنزِيلًا﴾:

لَمَّا قال اللهُ تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾؛ كان الظَّاهرُ أن يقال: (إنزالًا ممن خلقَ الأرض)، فعُدِلَ إلى ﴿تَنزِيلًا﴾ الذي هو مصدرُ (نزَّلَ) للإشارةِ إلى أنَّه كما أنَّ خلقَه العظيمَ للأرضِ والسَّماوات العُلا يُؤذِنُ بالحكمةِ، وكان تدريجًا؛ فإنَّ تنزيلَ القرآن بالتَّدريجِ هو بحكمةٍ أيضًا، فيتمهَّلُ اللهُ تعالى على عبادِه في التَّنزيل ترفُّقًا بهم، وتيسيرًا للعملِ به، وإزالةً لشُبَههم، وشرحًا لصدورِهم، وتسكينًا لنفوسِهم، ومدًّا لمدَّة البركةِ فيهم بتردُّد الملائكةِ الكرام إليهم، وأمَّا التَّعبيرُ بالإنزالِ في قولِه: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾؛ فلأنَّه كان السِّياقُ في بيانِ أنَّه أنزله كلَّه لينذرَ به، ويبشِّرَ، لا ليشقى، والقرآنُ كلُّه تذكرةٌ، فكان التَّعبيرُ بالإنزالِ في موضعه منَ النُّزول في جملتِه لا في تفصيله، أمَّا هنا؛ فإنَّه يَحكي الواقعَ، وهو التَّنزيلُ شيئًا فشيئًا[2].

نـزل القرآن مُنجّمًا لحِكَمٍ عظيمةٍ منها التَّرفُّقُ بالمؤمنين وتيسيرُ العملِ به

معنَى (مِنْ) في ﴿مِّمَّنْ﴾:

تفيدُ (مِنْ) الابتداءَ، بمعنَى: أنَّ ابتداءَ تنزيلِه منَ اللهِ الذي خلقَ الأرضَ والسَّماوات العلا، للإشعارِ بعظمةِ المنزِّل ﷻ.

ابتداءُ نزولِ القرآن من عند العظيمِ سبحانه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 4.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 267، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4705.

بلاغةُ التّعبيرِ في قولِه: ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ﴾:

نصرُ الله وتأييدُه لعباده القائمين بتبليغِ القرآن

عبَّر بالاسمِ الموصولِ (مَنْ) لِما تُؤْذن به الصِّلةُ من تعظيم الموصولِ الذي ابتدأ تنزيلُ القرآن منه سبحانَه؛ ليَنْتَقِلَ مِنْ ذَلِكَ إلى الكِنايَةِ بِأَنَّ الَّذي أَنْزَلَهُ عليْكَ بِهَذِه المنزلةِ منَ العظمة والقُدرةِ، فلا يَتْرُكُ نَصْرَكَ وتَأْييدَكَ في تبليغ القرآن، كما يُؤذن التَّعبيرُ بالاسم الموصول (مَنْ) أنَّ الذي خلقَ الأرضَ والسّماواتِ واحدٌ أحدٌ، فيتحتَّمُ إِفْرادُه بِالعِبادَةِ[1]، وأفادتِ الصِّلةُ التي تكونُ معلومةَ الانتساب عند المخاطَبين إلى مشارٍ إليه معيَّنٍ أنَّ المخاطَبين جميعًا يعلمون أنَّ الله هو الذي خلقَ الأرضَ والسّماواتِ وما بينهما، أو أنَّه نُزِّلَ منزلةَ المعلومِ لشدَّةِ وضوحِه.

التَّوجيه النَّحويُّ في الآية:

تعظيمُ القرآن يوجبُ العنايةَ به بتدبُّرِه والتَّأمُّلِ في معانيه وحقائِقِه

نجدُ في قوله تعالى: ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ أنَّه لَمَّا جاءت هذه الجملةُ متعلِّقةً بقولِه ﴿تَنزِيلًا﴾ أفادت تعظيمَ شأنِ المنزَّل وتفخيمَهُ، وهو القرآنُ بالدَّليلِ والحُجَّةِ، فإنَّه لَمَّا نسبَه إلى أنَّه تنزيلٌ ممَّن خلق الأرضَ، وخلقَ السّماوات على علوِّها؛ أفاد تعظيمَ الله تعالى الذي يظهر بِتَعْظيم خَلْقِه ونِعَمِه، ولَمَّا عظَّم الله تعالى؛ دلَّ على تعظيم المنزَّل، وإنَّما عَظَّمَ القُرْآنَ تَرْغيبًا في تَدَبُّرِه والتَّأَمُّلِ في مَعانيه وحَقائِقِه، وذَلِكَ مُعْتادٌ في الشَّاهِدِ، فإنَّهُ تَعْظُمُ الرِّسالَةُ بِتَعْظيمِ حالِ المُرْسَلِ؛ ليَكونَ المُرْسَلُ إِلَيْه أَقْرَبَ إِلَى الامتِثالِ[2].

بلاغةُ الالتفاتِ في الآية:

تنوُّعُ دلالاتِ الالتفاتِ وبراعةُ معانيه

انتقل الكلامُ من لفظِ المتكلِّم بنون العظمةِ في قولِه: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ إلى لفظ الغائب بذكر الاسم الموصول (مَنْ) في قولِه: ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 186.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 51، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 7.

ٱلْعُلَى﴾، فجاءت نسبةُ التنزيلِ إلى الموصول بطريق الالتفات إلى الغَيبة؛ لِبيان فخامتِه تعالى بحسب الأفعالِ بذكر خلق الأرضِ والسماوات العلا، وبحسبِ الصِّفات بذكرِ الاستواءِ على العرشِ إثرَ بيانها بحسب الذَّاتِ عند التَّعبيرِ بنون العظمة، ليكون الكلامُ بطريق الإبهامِ ثمَّ التّفسيرِ، وفوائدُه أمورٌ؛ **أحدُها**: التَّفنُّن في الكلام وتصريفِ القولِ وما يُعطيه منَ الحسن والرّوعة، **وثانيها**: زيادةُ تحقيقٍ وتقريرٍ بمجيء الكلام على الإطناب بذكرِ عظمة الخلقِ، **وثالثُها**: أنَّه عبَّر بضمير المتكلِّم بنون العظمة ليكونَ من قبيل التَّسليةِ والملاطفةِ والرِّفقِ بالنَّبيِّ ﷺ، وهو الذي يكونُ منه التَّكليف، فكأنَّه سبحانه يقول – ولكلامه المثلُ الأعلى –: (ما أنزلتُ القرآنَ، وكلَّفتُكَ ما فيه لتشقَى، فهوِّن عليك، ولا تأسَ على القوم الكافرين)، وأمَّا في هذه الآية؛ فهو يبيِّن صفاتِه سبحانَه وأفعالَه، فيناسبُها حديثُ الغَيْبَةِ، **ورابعُها**: تفخيمُ المنزَّل من وجهين إسنادِ إنزاله إلى ضمير الواحد العظيم الشأنِ المطاعِ، فقال أوَّلًا: ﴿أَنزَلْنَا﴾، ثم ثنَّى بالنِّسبة إلى المختصِّ بصفات العظمةِ والتّمجيد، لِلتَّنبيه على أنَّه واجبُ الإيمان به والانقيادُ له من حيث إنَّه كلامُ من هذا شأنُه، فضوعِفتِ الفخامةُ من طريقين[1].

معنى (أل) في قوله: ﴿ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

(أل) في الموضعين للعهدِ، أي: الأرضُ المعهودةُ لكم بالعيش فيها والسّماواتُ المعهودةُ التي ترونها فوقكم، ليفيدَ أنَّ خلقَهما واضحٌ معهودٌ عندَ المخاطَبين، وأنَّ خالقَهما هو الله الواحدُ الأحدُ.

اللـه خـالـقُ الأرضِ التي تُقلُّ النَّاسَ والسّماءِ التي تُظلُّهم

نُكتةُ تقديمِ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ على ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

قُدِّمتِ الأرضُ على السّماوات؛ لأنَّه لمَّا قال تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 51، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 23، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 4، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4705.

تشريفُ الأرضِ بالقرآنِ وبسيِّدنا محمَّدٍ ﷺ

﴿عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾؛ كان الكلامُ عن تنزيل القرآنِ على الأرضِ، فشرُفَتِ الأرضُ بالتَّقديم لمَّا جاءت في سياق ذكرِ المنزَّلِ عليه القرآنُ، وهو سيِّدنا محمَّدٌ ﷺ الذي يبلِّغ القرآنَ على الأرض، ولكونِ الأرضِ موضعَ سكنِ المخاطَبين، كما أنَّه لمَّا كان الكلامُ مسوقًا في بيانِ عظيم رحمتِه بتنزيل القرآن وإنعامِه على النَّاس، وكان الإنعامُ عليهم بخلق الأرض أظهرَ وأتمَّ، فهي أقربُ إلى الحسِّ، وأظهرُ عندهم منَ السّماوات، قُدِّمت الأرضُ، والمقامُ مقامُ حثٍّ على النَّظر والاعتبارِ، فقُدِّم الأقربُ لهم حسًّا، ومن نُكَتِ التَّقديم كذلك: أنَّ المشركين وغيرَهم منَ الطُّغاة يدَّعون السّلطانَ في الأرض وتمكُّنَهم فيها، فبيَّن الله تعالى أنَّه خالقُها، فهو لها أملكُ، وسلطانُه عليها[1].

نُكتةُ إفرادِ الأرضِ وجمعِ السّماوات:

عطفُ جنسِ السّماوات على جنسِ الأرضِ لإظهارِ عظمةِ الله وقدرته

لمَّا عطف ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بصيغةِ الجمعِ على ﴿ٱلْأَرْضَ﴾؛ دلَّ على أنَّ العطفَ من عطفِ الجنس على الجنس؛ لأنَّ التَّعريفَ مصروفٌ إلى الجنسِ، لا من عطف الجمعِ على المفرد حتى يَلزَمَ ترْكُ الأَولى من رعاية التَّطابُقِ بين المعطوف والمعطوفِ عليه[2]، فالمقصودُ النَّظرُ إلى جنس الأرضِ وجنس السّماوات، وإظهارُ عظيم قدرتِه وملكِه وإحاطتِه به، كما أنَّ لفظَ التَّنزيل يُشعِر بالاهتمامِ بإظهار سموِّ العلوِّ، فجاء لفظُ ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جمعًا، وللتَّوصُّلِ إلى رعاية الفاصلة بمجيء الصّفة ﴿ٱلْعُلَى﴾ بصيغة الجمع.

بديعُ الطِّباقِ بين الأرض والسّماواتِ:

مَنْ خلقَ السّماواتِ والأرضَ لا يكونُ إلَّا إلهًا واحدًا

ورد الطِّباقُ في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ على سبيل المقابلةِ بين الأسفل والأعلى لتنبيه المخاطَبين إلى سَعةِ خلقِه وعظيمِ

(1) إسماعيل حقي، روح البيان: 5/ 363، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 468، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4705.

(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 5/ 363.

قدرته، وللإشعارِ بأنَّ من هذا شأنُه لا يكونُ إلَّا إلهًا واحدًا أحدًا، فينبغي توحيدُه بالعبادة وتعظيمُ القرآنِ الذي نزَّله.

نُكتةُ وصْفِ السّماوات بـ﴿ٱلْعُلَى﴾:

عِظَمُ خلقِ السّماوات وعلوُّها دليلٌ على عظمةِ الخالقِ

وصَفَ ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بـ﴿ٱلْعُلَى﴾ وهي صفةٌ كاشفةٌ تأكيدًا لفخامةِ السّماوات، وزيادةً في تقريرِ عظمة خالقِها، وإيذانًا بعظَم قدرةِ من يخلقُ مثلَها في علوِّها وبُعد مُرتقاها مع رعاية الفواصلِ[1]، كما أنَّه لمَّا كان وصفُ السّماوات باعتبار مقابلتِها بالأرضِ، أشعرَ بأنَّها الأشرفُ والأرفعُ بالإضافة إلى هذا العالم الذي نعيشُ فيه.

بلاغةُ فائدةِ الخبرِ ولازمِها في الآية:

النَّظرُ في خلقِ السّماوات والأرضِ والاعتبارُ بهما عبادةٌ

في قولِه تعالى: ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ فائدةُ الخبرِ هي الإخبارُ بأنَّ القرآن منزَّلٌ من عندِ اللّه تعالى الذي خلق الأرضَ والسّماوات العُلا، ولازمُ الفائدة أمورٌ، منها: تعظيمُ شأنِ القرآن لظهور عظمةِ منزِّله، والحثُّ على الاعتبارِ، وتقريرُ أنَّ القرآنَ تَذْكِرَةٌ لِمَنْ يَخْشَى بالتَّذكيرِ بآثار خلْقِه، وتحقيرُ الأوثان التي يعبدونَها، وحثُّ المخاطَبينَ على النَّظرِ في هذا الخلقِ العظيمِ[2].

نُكتةُ تخصيصِ خلقِ الأرض والسّماواتِ بالذِّكر:

السّماواتُ والأرضُ من أعظمِ مُشاهداتِ خلقِ الله تعالى

تخصيصُ خلْقِ الأرضِ والسّماوات بالذِّكر مع أنَّ المرادَ خلْقُهما بجميع ما يتعلَّقُ بهما، كما يُفصحُ عنه قولُه تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية، لأصالتِهما واستتباعِهما لِما عداهما، ولِكَوْنِهما أَعْظَمَ ما يُشاهدُهُ العِبادُ مِنْ مَخْلوقاتِه ﷻ، أو للإيماء إلى ما في جهة السُّفلِ والعلوِّ، ويستتبعُ ذلك كلَّ ما يتعلَّقُ بهما[3].

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 51، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 8، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 4، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 186.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 37.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 4، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 416، والمراغي، تفسير المراغي: 16/ 95.

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

وصْفُ الرَّحمنِ لا يُسمّى به إلَّا الله ولا يليقُ إلاّ به سبحانه

جاءت جملةُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ على طريق الفصلِ؛ لأنَّها تأكيدٌ لمضمونِ ما قبْلَها، والجملةُ كلامٌ تامٌّ، ولفظُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ بالرَّفعِ، فإمَّا أن يكون رفعًا على المدح[1]، بحذف المسنَدِ إليه الذي يقعُ في الكلامِ البليغ[2]، فإنَّه لمَّا أخبرَ عن عظيم خلقِه وقدرتِه؛ أخبرَ عن ذاتِه سبحانه بوصفٍ عظيمٍ جليلٍ بحذفِ المسنَدِ إليه إيذانًا بأنَّ هذا الوصفَ لا يصلحُ إلَّا له سبحانه، كما أنَّ في الحذفِ تعويلًا على شهادةِ العقل واللَّفظِ، وفي الحذفِ كذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ استواءَه تعالى على العرشِ برَحمانيَّتِه، فكان حذفُ المبتدأ أبلغَ وألطفَ وأفيدَ، والتَّقديرُ: (هو الرّحمنُ هو على العرش استوى)، ليفيدَ تعدُّدَ الخبر من حيث المعنى الدَّالُّ على تعظيم شأن المسنَدِ إليه، وهو اللّه تعالى المخبَرُ عنه بأنَّه خلقَ الأرض والسّماوات العُلا، ويحتملُ أن يكونَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مبتدأً خبرُه ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾.

بلاغةُ الإطنابِ في الآية:

الإطنابُ مَسوقٌ لتعظيمِ شأنِ المنزِّلِ ﷻ والمنزَّل وهو القرآنُ

لمَّا أخبرَ اللّه تعالى عن عظيم خلقِه في قوله: ﴿مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾؛ جاءت جملةُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ تأكيدًا لمضمون عظمةِ خلقِه وتقريرًا له - كما تقدَّم - وكلُّ الذي ذُكِرَ من قولِه: ﴿تَنزِيلًا﴾ إلى قولِه: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ إطنابٌ مَسوقٌ لتعظيم شأنِ المنزِّلِ ﷻ المُستتبِع تعظيمَ شأنِ المنزَّلِ الدَّاعي إلى تربيةِ المهابةِ في نفوسِ المخاطَبين وإدخالِ الرَّوعةِ المؤدّيةِ إلى استنزال المُتمرِّدين عن رُتبة العتوِّ والطّغيان واستمالتِهم نحو الخشية المُفضية إلى التَّذكرة والإيمان[3].

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 51، وابن عطية، المحرر الوجيز، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 312.
(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 147، والسكاكي، مفتاح العلوم، ص: 176.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 4.

نُكتةُ التَّعبيرِ بوصفِ الرَّحمن دونَ غيره:

الـرَحـمـن على العرش استوى، ورَحمتُه وسعتْ كلَّ شَيءٍ

لَمَّا كان وصفُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مختصًّا باللهِ تعالى، ويجري مجرَى العلم[1]؛ آذنَ باختصاصِ وصْفِ الاستواء على العرشِ به سبحانه، ولَمَّا جاء الوصفُ إثرَ وصْفِه بخالقيّةِ السّماوات والأرض أظهرَ بأنَّ خلقَهما من آثار رحمته تعالى؛ لِما في خلقهما من مصالحِ العباد، فإنَّ أكثرَ مصالح العالمِ الجسمانيّةِ متعلِّقةٌ بالأرض والسّماء[2]، فكلُّ ذلك منَ الرحمة، وعُبِّرَ بقولِه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ هنا دون (الرَّحيم)؛ لأنَّه لَمَّا كان وصفُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ على زنةِ (فَعْلان) المفيدِ المبالغةَ في الوصف بالرَّحمةِ وسَعةِ المعنى وثبوتِ جميعِ معناه الموصوفِ به؛ كان الإخبارُ باستوائِه سبحانه على عرشِه المحيطِ بالمخلوقات مُؤذنًا بأنَّ رحمتَه تعالى محيطةٌ بالخلقِ، وأنَّها تسعُهم، وأنَّ تدبيرَه تعالى وتصرُّفَه في الخلقِ بحكمِ رحمتِه، فاسْتَوى على أوسَعِ المخلوقاتِ بأوسَعِ الصِّفاتِ؛ فلذلكَ وسِعَت رَحمتُه كلَّ شَيءٍ، قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: 156].

بلاغةُ التَّعليق بقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

كـلُّ مـا يـقـعُ في هـذا الـخـلـقِ هو مـن عـينِ رحـمـةِ الـلـه الـواسـعـةِ العظيمةِ

تعليقُ الإخبار بالاستواء على العرشِ على المسنَدِ إليه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ يفيدُ أنَّ استواءَه تعالى على العرشِ برَحمانيَّته، وأنَّه ﷻ مدبِّرُ عرشِه بمقتضى الرّحمةِ التي تعمُّ الوجودَ كلَّه، فكلُّ ما يكونُ هو من عينِ رحمتِه العظيمةِ، حتى عذابِ العصاة يكونُ رحمةً ليستقيم ميزانُ الوجود كلّه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه مع عُلوِّه وعظمَتِه مَوصوفٌ بالرَّحمةِ، كما أنَّ فيه تذكيرًا بأنَّ تنزيلَ القرآن من رحمتِه البالغةِ على العبادِ، وأنَّ إفْرادَهُ بالعبادَةِ شُكْرٌ على إحْسانِه برَحمانيَّتِه[3].

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 601.
(2) السخاوي، تفسير القرآن العظيم: 1/ 527.
(3) السخاوي، تفسير القرآن: 1/ 528، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 5، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4706.

معنى (أل) في ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

تعليمُ النَّاسِ أنَّ الله له وصْفُ الرَّحمن؛ ولو أنكره المشركون

اللام في لفظ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ للعهد، مشارًا به إلى قوله تعالى: ﴿مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾، ففيه إطنابٌ في التَّعريف بالله وصفاته، ولتَعليمِ النَّاسِ به؛ لأنَّ المُشركين أنكَروا تَسميتَه تعالى الرَّحمنَ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: 60][1].

بلاغةُ تقديمِ شبه الجملة ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾:

التّقديمُ للعنايةِ والاهتمامِ إذ هو أعظمُ المخلوقاتِ وأشرفُها

أفاد التَّقديمُ كمالَ العناية والاهتمام بذكر أعظمِ مخلوقاتِ الله وأشرفِها، الذي يظهرُ بذكرِه سَعةُ خلقِ الله تعالى وعِظمُ شأنِه، وفي التَّقديم تخصيصٌ للوصفِ، بمعنى: أنَّ الرَّحمنَ استوى على العَرشِ، استواءً يليقُ بجلال وجهه وعظيمِ سلطانِه.

نُكتةُ ذكرِ ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾:

عرشُ الرّحمنِ أعظمُ مخلوقاتِ الله وأجلُّها

خُصَّ العرشُ بالذِّكر؛ لأنَّه أعظمُ المخلوقات وأجلُّها وأرفعُها وأوسعُها على ما هو معروفٌ من إضافة الأمورِ العظيمةِ إلى أعظم الأشياءِ، فنبَّه بذكرِ العرشِ على ما دونَه من سائر المخلوقاتِ، وفهَّمَنا الله تعالى انفرادَه بالملك والعظمة بذكر العرش والاستواءِ عليه[2].

دلالةُ التَّعبير بالاستواء:

ذكرُ العرشِ تنويهٌ بسَعةِ سُلطانِ الله تعالى

ذِكْرُ الاسْتِواءِ على العرشِ تعبيرٌ عَنْ شَأْنٍ عَظيم من شؤون عَظَمَةِ الخالِقِ تَعالى وصفةٌ من صفاتِه العلا، وزيادَةٌ في تَصْويرِ عَظَمَةِ الله تَعالَى وسَعَةِ سُلْطانِه بَعْدَ قَوْلِه: ﴿مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 5، وإسماعيل حقي، روح البيان: 5/ 363، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 186.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 268، وأبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 10/ 260.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 31 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-73-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 31 : المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-73-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»